انتشار اللغة العربية مقياس للوعي الإسلامي

للدكتور عبد الوهاب البرلسي

مدير جامعة اسيوط

ينبغي قبل الاجابة على السؤال المطروح للاستفتاء ان نعبر حقب التاريخ الاسلامي كله ونعود الى العصر الجاهلي فى الجزيرة العربية ، لنتعرف على حال اللغة فيه .

كان العرب الذين يقطنون الجزيرة العربية لغاتهم مختلفة ، والسنتهم شتى ، فلغة هذيل تختلف عن لغة اسد ، ولسان تميم يختلف عن لسان قريش ، وهكذا الشأن بالنسبة لسائر قبائل العرب .

غير ان قريشا كانت افصح العرب ، وارقاهم لغة ، واعذبهم لسانا . وقد اعانها على ذلك ما كان لها من نفوذ ديني واقتصادي وسياسي بين سائر القبائل.

كانت قريش جيرة البيت الادنين يقومون بسدانته وكان العرب جميعا يحجون اليه ، فأتاح لها ذلك ان تأخذ من لغات القبائل اعذب كلماتها وارقاها ، وتضيفها الى لغتها فتثيرها .

قال ابن فارس : « كانت قريش مع فصاحتها وحسن لغتها ورقة السنتها اذا اتتهم وفود من العرب تخيروا من كلامهم واشعارهم احسن لغاتهم واصفى كلامهم ، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات الى سلائقهم التي طبعوا عليها فصاروا بذلك افصح العرب » .

كذلك كان لموقع الحجاز المتوسط نوعا ، وسهولة الوصول اليه ، وقوعه على طريق القوافل الرئيسي الذي يمتد من الشمال الى الجنوب ، ان اتيحت لقريش فرصة نادرة للقيام بنشاط تجاري واسع ، شمل اسواق صنعاء ، وموانى عمان ، واليمن ، وبلاد الحبشة، ومصر ، والشام ، والبلاد الواقعة فى حوض البحر المتوسط . وقد استفادت قريش من اشغالها بالتجارة فوائد مادية ومعنوية وادبية على جانب كبير من الاهمية . فكثرة اسفارهم ، ومخالطتهم لاقوام مختلفين كالفرس والروم من ذوي المدنيات القديمة والادب التالد ، ووقوفهم على شئون السياسة واساليب التجارة واحوال الامم الاجتماعية والادبية ، ارتقى بمداركهم ، وثقف عقولهم ، وشحذ اذواقهم وصقل لغتهم واثراها بالكثير من الكلمات التي اخذوها

من لغات هذه الامم (1) حتى وصلوا الى مستوى فكري ولغوي لم يصل اليه أهل البدو .

وقد حقق النفوذ الديني والاقتصادي لقريش نفوذا اساسيا قويا في سائر بلاد العرب في العصر الجاهلي . وأساليب السياسة تستلزم درجة عالية في فن التعبير لا تتأتى الا للغة راقية غنية طيعة .

وهكذا اجتمعت لقريش في الجاهلية كل اسباب الفصاحة والبلاغة والرقي اللغوي . ولقد كان للفصاحة شأن عظيم عند العرب فعدوها مع الرماية والفروسية مزايا الرجل الكامل الثلاث . ومن امثالهم « جمال المرء في فصاحة لسانه » ، واثر عنهم انهم قالوا : « اشتهر اليونان بالحكمة واهل الصين بالصناعة والاعراب ببلاغة المنطق » .

وكان تفوق العرب في الجاهلية في الشعر ، وكان ميلهم اليه ميزتهم الثقافية الوحيدة. وقد لعب شاعرهم ادوارا هامة في حياتهم الاجتماعية ، فاذا اشتبك قومه في معركة كان لسانه فعالا كشجاعتهم . اما في السلم فقد تثير قصيدته القبيلة وتدعو خطبته النارية الى الاضطراب والانشقاق .

وكان الشاعر ممثل القبيلة وخطيبها وعالمها ومؤرخها ، وكان فوق ذلك صحافي يومه ، ولذلك اغدق عليه الامراء هداياهم الثمينة كسبا لعطفه . فشعره كان اداة فعالة في تكوين الراي العام . وكان اغداق العطايا على الشاعر تحاشيا لهجوه يعرف عندهم (بقطع اللسان) .

والعرب يفوقون شعوب الارض جميعا باستحسانهم التعبير اللفظي واعجابهم به ، وباثارة الكلم لنفوسهم .

فلما شاء الله ان يبعث بخاتم رسله وانبيائه ، واختار محمدا القرشي لابلاغ رسالته ، انزل عليه القرءان الكريم معجزة قولية على درجة لا تسامى من الفصاحة والبلاغة ، اذهلت العرب كما اذهلت قريشا على فصاحتها وبلاغتها .

ولقد كان هذا الاعجاز في اعتقادهم اسطع برهان على صحة الاسلام ، ولذلك يمكن القول ان فوز الاسلام كان فوز لغة ، وكان على اليقين فوز كتاب . ومن هنا تاتي العلاقة السببية بين الاسلام واللغة العربية .

ثم كان الفتح الاسلامي وانتشار الدعوة في الامصار خارج الجزيرة العربية ، **فانتشرت اللغة العربية بانتشار الدعوة** ، واخذ المسلمون من غير العرب يقبلون على تعلم اللغة العربية لغة القرءان الكريم ــ مع اقبالهم على الدين الحنيف ليعرفوا احكام دينهم الجديد ويقيموا شعائره .

ولم تمض على وفاة النبي عليه السلام مائة عام حتى اصبح العرب اصحاب دولة عظيمة امتدت ارجاؤها من بحر الظلمات غربا الى حدود الصين شرقا ، ومن جبل اورال شمالا الى حدود السودان جنوبا . ودخل في دين العرب وفي لسانهم ودمهم من الشعوب واللغات والاجناس ما لم يعهده التاريخ من قبل حتى في اخبار اليونان والرومان .

---

1) يؤيد ذلك ما ورد في القرءان الكريم ــ الذي نزل بلغة قريش ــ من كلمات كثيرة ليست في الاصل عربية مثل :

اباريق : حكى الثعالبي في فقه اللغة انها فارسية ، وقال الجواليقي : الابريق فارسي معرب ومعناها طريق الماء .

استبرق : اخرج ابن ابي حاتم عن الضحاك انه الديباج الغليظ بلغة العجم .

اخلد : قال الواسطي في الارشاد : اخلد في الارض ركن بالعبرية .

اسفار : قال الواسطي في الارشاد هي : الكتب بالسريانية والقيوم هو الذي لا ينام بالسريانية ايضا .

اكواب : حكى ابن الجوزي انها الاكواز بالنبطية . واخرجها كذلك ابن جرير عن الضحاك .

سندس : قال الجواليقي هو رقيق الديباج بالفارسية ، وقال شيدلة هو بالهندية .

الصراط : حكى النقاش وابن الجوزي انه الطريق بلغة الروم . وكذلك جاء في كتاب الزينة لابي حاتم .

فردوس : هو البستان بالرومية **والقسط والقسطاس** هو العدل بالرومية ايضا .

اليم : قال شيدلة هو البحر بالقبطية .

مشكاة : اخرج ابن ابي حاتم عن مجاهد قال: المشكاة الكوة بلغة الحبشة .

وأصبح **القرءان الكريم هو الكتاب الذي يعتمد عليه المسلمون في تعلم اللغة العربية** . ولولا الاسلام لما تأتى للغة العربية أن تنتشر في العالم هذا الانتشار . ومن هنا كان التلازم بين انتشار الاسلام وانتشار اللغة العربية في عصوره الاولى .

ووطننا مصر أصدق مثال على صحة ما نقول . فقد كانت مصر قبل الفتح العربي تتخذ اللغة القبطية أداة للتعبير ، فلما دخل أهلها في دين العرب اتخذوا اللسان العربي **وأصبحت اللغة العربية لغتهم الرسمية**، كما أصبح القرءان الكريم عندهم كتابا مدرسيا ينهل منه كل طالب علم . وما يزال القرءان في الازهر وهو أعظم جامعة اسلامية في العالم ، أساسا لمناهج الدراسة والتهذيب .

ولقد كانت **اللغة العربية** وستظل دائما **المقياس الصحيح للوعي الاسلامي** والوازع الديني يقويان بقوتها ويضعفان بضعفها ، ونجد في مصر الدليل الساطع في ابان العهدين التركي والعثماني حينما ضعفت اللغة العربية نتيجة غلبة العنصر التركي على الحياة العامة ، فتفشى الجهل وكثر الفساد وشاعت الخرافات وانتشرت البدع . فلما قويت اللغة العربية في العصر الحديث بعد ان نقلت اليها علوم الحضارة الحديثة ، وانتشر التعليم ، قوى الوعي الاسلامي والوازع الديني بازدهار العلوم الدينية وكثرة البحوث الفقهية التي ساهم في نقلها الى الناس وسائل الاعلام الحديثة كالمذياع والتليفزيون بالاضافة الى الكتب والصحف العامة والمتخصصة والندوات والمؤتمرات . ويؤدي الازهر من خلال معاهده وكلياته والمجالس التي تتبعه أعظم دور في هذا المضمار .

وينبغي الا نغفل الدور العظيم الذي لعبته اللغة العربية في نقل الحضارة الانسانية واثرائها . فعندما ورث العرب المدنيات القديمة التي ارتفعت معالمها على شواطيء الرافدين وعلى سواحل البحر المتوسط الشرقية وفي وادي النيل ، واقتبسوا القيم من مآثر الاغريق والرومان واضافوا اليه الكثير مما ابتدعوه ، أصبحت اللغة العربية خلال بعض القرون الوسطى **لغة العلم والثقافة والتقدم والعمران في العالم قاطبة** . فكان عدد المؤلفات الفلسفية والطبية والتاريخية والدينية والفلكية والجغرافية التي كتبت بها في المدة الواقعة بين القرن التاسع والقرن الثاني عشر للميلاد اعظم مما كتب بأية لغة أخرى . وقد نقل هذا التراث الى أوربا في عصورها المظلمة ونشر فيها فكان له الفضل في بزوغ فجر اليقظة العلمية التي لم يزل العالم الغربي كله يتمتع حتى اليوم بثمراتها . ولا يزال اثر اللغة العربية ظاهرا في لغات الغرب التي استعارت منها الكثير **من المفردات العلمية والفنية التي حواها الفكر الاسلامي** .

ولعل **أكبر أثر** تركه الفكر الاسلامي عن طريق لغة القرءان انما كان **على اللغة الفارسية** . فالعقلية الفارسية كانت من اسبق العقليات التي اشتركت في تدوين الفكر الاسلامي سواء كان في الادب شعره ونثره، ام في علوم الدين او الفلسفة . فمنذ القرن الرابع الهجري بدات الحضارة الاسلامية ــ مدونة باللغة الفارسية ــ تسير جنبا الى جنب مع اللغة العربية كلغة لهذه الحضارة . وبدأ العلماء يكتبون باللغة العربية واللغة الفارسية في الموضوع الواحد . فلم تكد نهضتهم تقوم حتى **غلبوا الالفاظ العربية على الالفاظ الفارسية** . وايران الاسلامية (فارس القديمة) تكتب الفارسية بالحروف العربية واكثر من ستين في المائة من كلمات لغتهم عربية ، ومقياس البلاغة عندهم وفرة الالفاظ العربية والقدرة على استعمالها .

وغني عن البيان ان **لغة القرءان الكريم لها أكبر الفضل في التقريب بين البلاد العربية والاسلامية في العصر الحديث** لانها اللغة المكتوبة فيها جميعا ، ولها في القرءان نموذج يحتذي .

وانا لندعو الله منزل القرءان ان يوفق الاقطار العربية جميعا في احياء لغة القرءان فتستعيد مكانتها في وجدان ابنائها وعلى السنتهم وتستوعب علوم الحضارة الحديثة وتشارك في تقدمها .